بسم الله الرحمن الرحيم

إن قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام ؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الله . والتي لا يقوم هـــذا الدين ــ عقيدة وتصوراً ، وخلقاً ، وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً ــ إلا عليها وبها . .

إن هذا الدين الذي أكمله الله ، وأتم نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم ديناً ــ كما قال لهم في كتابه الكريم ــ هو منهج للحياة كامل في حقيقته ، متكامل متناسق في تكوينه . . « يتكامل » ويتناسق فيـــه تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية ، مع شرائعه التنظيمية . . وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيـــه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة ــ في التصور الاسلامي ــ ليست هي الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة ــ في التصور الاسلامي ــ تمتد طولاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعـــاً في الحقيقة . . عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة ـ في التصور الاسلامي ـ تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المحدودة المشهودة ـ فترة الحياة الدنيا ـ وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله ؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس اليها ساعة من نهار !

وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم نحن إلا ما أخبرنا به الله . وجود يبدأ من لحظة الموت ،وينتهي في الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الانساني في صور لا يعلمها إلا الله وتمتد الحياة في حقيقتها؛فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا ، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى .. في الجنة وفي النار سواء .. وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا ولا تساوي الدنيا ـ بالقياس اليها ـ جناح بعوضة !

والشخصية الانسانية ـ في التصور الاسلامي ـ يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان ، وفي هذه الآفاق من المكان ، وفي هـذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات، ويتسع تصورها للوجود كله ؛ وتصورها للوجود الانساني ، ويتعمق تذوقها للحياة ؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها ، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات .. بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يتضاءل تصورهم للوجود الكوني ، وتصورهم للوجود الانساني ، وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا !.

ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم ، ويبدأ الاختلاف في النظم .. ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق ؛ وتتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه : تصوراً واعتقاداً وخلقاً وسلوكاً وشريعة ونظاماً ..

إن إنساناً يعيش في هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات غير انسان يعيش في ذلك الجحر الضيق ويصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض يفوته ، ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به .. إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس !

إن اتساع التصور وعمقه ينشىء سعة في النفس وكبراً الاهتمامات ورفعة في المشاعر ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك ، غير خلق وسلوك ، غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم ! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه ، طبيعة هذا التصور ، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ؛ استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ، وصلح خلق الفرد واستقام سلوكه — متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الاسلامي — وصلحت الأوضاع والأنظمة ،التي لايتركها الأفراد تسوء وتنحرف ، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة ! فيخسرون الدنيا والآخرة !

والذين يفترون على عقيدة الآخرة فيقولون : إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ، وإلى اهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها واصلاحها ، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة .. الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة — كما هي في التصورات الكنسية — وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم . فالدنيا — في التصور الاسلامي — هي مزرعة الآخرة والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ودفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً . كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى .

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ،أو

تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح والعمران .. وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟

إن النـــاس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين ، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا — مع ادعائهم الإسلام — فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للاسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هـذا الدين ، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة . فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ؛ وهو يعي حقيقة هـذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلبياً أو متخلفاً أو راضياً بالشر والفساد والطغيان . إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهـد لترقية هـذه الحياة وتسخير طاقاتها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملاً الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة .. إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ؛ وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى .

وكل جزئية في النظام الاسلامي منظور فيها إلى حقيقة الحيـــاة الآخرة ؛ وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع ؛ وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتحرج وتقوى ، ومـــا تنشئه في النشاط الانساني من تسديد وثقة وتصميم .

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الاسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة .

وكان العرب في جاهليتهم — وبسبب من هذه الجاهلية — لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هـذه الحياة الدنيا ؛ ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر ، ولا في امتدادات الذات الانسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير

هذه الآماد المحسوسة . مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراته . شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة . « العلمية » كما يصر أهلها على تسميتها ! « وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .

وكان الله — سبحانه — يعلم أن الإعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة .. هذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصور ، التي تلصق الإنسان بالأرض ، وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة .. وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، التي تطلق السعار في النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح ، ولا هدنة ، ولا أمل في عوض ، إن لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة ، التي لاتكاد تبلغ نزوات البهيمة !.. وهذه الأنظمة والأوضاع التي تنشأ في الأرض منظوراً إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ؛ بلا عدل ولا رحمة ، ولاقسطولاميزان .. إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضاً ، وتصارع الطبقات بعضها بعضاً ، وتصارع الأجناس بعضها بعضاً . وينطلق الكل في الغابة انطلاقاً لا يرتفع كثيراً عن انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهده اليوم في عالم « الحضارة » .. في كل مكان .. كان الله — سبحانه — يعلم هذا كله ، ويعلم أن الأمة التي قدّر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية ، وقيادتها إلى القمةالسامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية .. أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة .. من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ...

ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة .. أولاً لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانياً لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان تصوراً واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً .

إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور ، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة

ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة .. كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة ، عن المضي في التبشير بالخير ، وفعل الخير والقيـــادة إلى الخير ، على الرغم من النتائج القريبة والتضحيات الأليمة .. وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة ..

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس «الإنسان» وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك « الحيوان » ! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة !.

لذلك كله كان التوكيد شديداً على عقيدة الآخرة في دين الله كله .. ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح .. حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً .. وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية ، تلك القيـــادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني !.

ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في القرآن .. الإيقاعات التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ، فتتفتح نوافذها وتستيقظ أجهزة الإستقبال فيها ، وتتحرك وتحيا ، وتتأهب للتلقي والإستجابة .. ذلك كله فضلاً على أنها تمثل الحقيقة .

إنها إيقاعات عنيفة عميقة . إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية . وصيحات . صيحات بين نُوَّم غارقين في النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الخمار ! أو بلاهين في سامر راقصين في ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من هـــذا القرآن بنذير واحد . اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا تدبروا .. إن هنالك إلهاً . وإن

هنالك تقديراً . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حساباً وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذاباً شديداً . ونعيماً كبيراً .. اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا .. وهكذا مرة أخرى . وثالثة . ورابعة وخامسة .. وعاشرة .. ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزاً عنيفاً ؛ ويعود الصوت العالي يصيح بهم من جديد ، وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب وفي القرآن تركيز على مشاهد القيامة العنيفة الطامة . الصاخة . القارعة . الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في صور تقرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في هولها وضخامتها ..

كثيرون هُم المسلمون اليوم .. ولكن قليل من يُؤمن بالآخرة عن يقين .. قليل من يخشى ذلك اليوم ويعمل له ..

إن الايمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك . والاسلام عقيدة متحركة ، لا تطيق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخارج ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع . ومنهج الاسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون . مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل .

وكثيرون هم الذين يقولون . « آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » .. يقولونها بأفواههم ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم فيتولون ناكصين ؛ يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان : « وما أولئك بالمؤمنين » ..

فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم ، والايمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ، ثم يدعها ويمضي إنما هو تكيُّف في النفس وانطباع في القلب ، وعمل في الواقع ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير .

يقول الحسن البصري « هيهات هيهات ، أهلك الناس الأماني ، قول بلا عمل ،

ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، مالي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً ،وأسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرّموا ثم استحلوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه إذا سُئل أمُؤمنٌ أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين .

إن من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وإيماناً في يقين ، وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم وكَيْساً في رفق ، وتجملاً في فاقة ، وقصداً في غنى ، وشفقة في نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء في الحقوق ، وإنصافاً في الاستقامـــة ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم في مساعدة من يحب ، لا يلمز ولا يغمز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ، ولا يلعب ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذي عليه » . . .

يقول بلال بن سعد : « عباد الرحمن : يُقال لأحدنا أتحب أن تموت ؟ فيقول : لا ، فيُقال : لِمَ ؟ فيقول : حتى أعمل ، ويقول سوف أعمل ، فلا يحب أن يموت ولا يحب أن يعمل ، وأحبّ شيء اليه أن يؤخر عمل الله ، ولا يحب أن يؤخر عنه عرض الدنيا » . ويقول : « يا أهل الخلود ، يا أهل البقاء ، أنتم لم تخلقوا للفناء ، إنما خلقتم للخلود والأبد ، ولكنكم تُنقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ثم إلى الخلود في الجنة أو النار » . .

إن صور الآخرة هي لإشعار البشر بهولها وضخامتها وجدّيتها ، وأصالتها في التقدير الالهي ، إنها صور لذلك الجو الراجف الواجف المبهور المذعور .فربَّ مسرور مغبون يأكل ويشرب ويضحك وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار . فياويلاً له روحاً ، وياويلاً له جسداً .

يقول بلال بن سعد : « انكم تتكلمون ويوشك الله أن يتكلم وتسكتوا ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسوّد منه الوجوه « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون » .

« عباد الرحمن : لو غُفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل ، ولو عملتم بما تعلمون لكنتم عبـــاد الله حقاً ! لكأننا قوم لا يعقلون ! لكأننا قوم لا يؤمنون !

« تنادى النار يوم القيامة : يا نار أحرقي ، يا نار اشتفي ، يا نار انضجي ، يا نار كُلي ولا تقتلي ، يا نار شَوّهي ! ويقول ميمون بن مهران : يا ابن آدم خفف عن ظهرك ، فإن ظهرك لا يطيق كل الذي تحمله عليه من ظلم هذا وأكل مال هذا ، وشتم هذا .. كل هذا تحمله على ظهرك فتخفف ! » .

يقول الأوزاعي : « ليست ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله تعالى فيها إلا انقطعت نفسه عليهـــا حسرات ، فكيف إذا مرّت به ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم وليلة مع ليلة ؟ » ..

فكّر فيما كنت تكابد من ألم الطاعة ، فإذا الألم سيذهب ويبقى الثواب ، وانظر فيما استمتعت به من لذة المعصية ، فاذا هو سيذهب ويبقى الحساب .. فستندم على كل لحظة لم تجعلها في طاعة .

إن المقاييس كلها تتبدل ساعة الموت ، وإذا كلُّ ما كنت أحبُّه وأنازعُ عليه ، قد سار عدماً ! وإذا أنا لم آخذ منه معي شيئاً ، بنيتُ داراً فما حملتُ معي منه حجراً ، واقتنيتُ مالاً فما كان لي منه إلا ما ظننتُ من قبل أني خسرته ، وهو ما أخرجتُه لله ، وعرفتُ لذائذَ الحياة كلها ، فما الذي بقي في يدي وأنا أموت من لذائذ الحياة كلها ؟

ونحن لا نعرف من الموت إلا ظاهره دون حقيقته ، نراه عدماً ، وننـدب القريب والحبيب إن وضعناه في حفرة باردة ، وخلّفناه وحيداً ، تأكله الدود ، وليس حبيبك الذي أودعتَه الحفرة ، ولكن جسده ، والجسد ثوب يخلع بالموت ، كما تخلع الحيّة ثوبها ، فهل يبكي أحدٌ على ثوب خُلع ؟

وما الموت إلا انتقال إلى حياة أرحب وأوسع ، إلى النعيم الدائم أو الشقاء الطويل ، ولو كان الموت فناءً لكان نعمة .. فاذا كان الموت سفرة لا بد منها ، فالعاقل من تهيأ لها ، وأعدّ لها الزاد والراحلة ، وذكرها دائماً كيلا ينساها،ونظر في كل شيء ، فإن كان مما يستطيع أن يحمله فيها حرَص عليه ، وإن كان مجبراً على تركه وراءه زَهِدَ فيه وانصرف عنه . ونحن في هذا العصر نرى أن المجتمعات الاسلامية قد افترستها المادية ، واستحوذت عليها الشهوات ، وأصيبت بالاغراق في الترف والامعان في الأماني .

ونحن في حاجة ملحة إلى مواعظ الآخرة التي تكشف الغطاء عن العيون وتمسّ القلوب .. وهذا الكتاب قد استخرجت فصوله من كتاب « في ظلال القرآن » المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الأساسية ، وقد بَوَّبْتُه مستعيناً بهدي النبي[1] ﷺ الذي كان الصورة الحيّة عن القرآن الكريم . وبهذا البيان القرآني والهدي النبوي أصبح العالم الآخر الذي وَعَدَهُ الله الناس بعد هذا العالم الحاضر ليس موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيّاً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً .

لقد عاش المسلمون في ذلك العالم .. رأوا مشاهده وتأثروا بها .. فلا بد لنا من استعراض مشاهد العالم الآخر حتى نؤمن به أنه ليس عالماً مستقبلاً بل واقعاً مشهوداً نُقيم على أساسه كل تصوراتنا وكل أعمالنا ..

والله ولي التوفيق .

(١) وقد اعتمدت في تخريج الاحاديث الشريفة على جامع الاصول في أحاديث الرسول ، وكتاب الترغيب والترهيب ، سائلاً الله التسديد والتصويب .